

أحمر أصفر أخضر

مجلة التراث والمجتمع العدد 43 - زاوية نبض الشارع - ربيحة علان - 2006/12/20م - 10:30 ص



تركت الانتخابات البلدية الفلسطينية وخاصة المرحلة الأخيرة منها أثرا قويا في أداء وفاعلية كافة الأطراف المعنية بالوضع الفلسطيني سيما وأن الانتخابات التشريعية كانت على وشك التنفيذ. ففيما يخص الوضع الداخلي ومن زاويتي كامرأة فلسطينية من عامة اللاجئين؛ كان نجاح الشعب الفلسطيني في تحقيق انتخابات حرة ونزيهة، وبالمقاييس العالمية؛ مفخرة وأملاً بمستقبل أفضل، وهو القاسم المشترك الذي لم يختلف عليه عاقلان مهما كانت وجهة النظر حول المرشحين والفائزين. ومن غير المنصف أن يدعي طرف من الفصائل الفلسطينية أنه صرحب هذا النجاح- نجاح الديمقراطية فالجميع كان بأحمره وأصفره وأخضره وحتى بقية الألوان الفلسطينية عناصر فاعلة في هذا الأداء الرائع الذي صنع في دواخلنا جميعا كفلسطينيين أملاً كبيراً بمواصلته في الانتخابات التالية الأكثر أهمية والأكثر جدلاً. وإن كان لأحد أن يفخر بذلك فهي الأسرة الفلسطينية؛ التي امتلكت أكثر من لون سياسي بين أفرادها. فهل هناك قيادة أو تنظيم أعلى من الأخ أو الأخت أو الأم أو الزوجة أو الابن؟ خاصة وأنه لا خلاف على الهدف بين العقلاء منهم بل في طريقة الوصول اليه. وبدا واضحا مدى الفرحة والارتياح الذي خلفته نتائج هذه الانتخابات المحلية على أنصار حركة حماس لتحقيقها فوزا قويا ومقاعد بلدية أكثر عددا، مما كثف من تحرك أعضائها نحو التشريعي والفوز به. كانت أيام ثلاث أو أقل قد بقيت قبل موعد نهاية قبول أي تسجيل للناخبين ليحق لهم المشاركة في انتخاب أعضاء المجلس التشريعي، فبدأ كثيرون ممن لم يسجلوا للانتخابات السابقة بتسجيل أسماءهم؛ يعاونهم في ذلك أنصار حركة حماس على وجه الخصوص؛ لأن معظم من لم يسجل للانتخابات سابقا كانوا من المقاطعين للانتخابات والذين كانوا يرفضون التسجيل ولو احتياطا



في حال دخول حماس الانتخابات ولكن فوز حماس شجع غالبية هؤلاء للتسجيل لنصرتهم في المعركة الانتخابية التالية. في إطار هذه الآثار أيضا احتدم الجدل بين عناصر حركة فتح حول نتائج الانتخابات البلدية ولأنهم يعلمون تماما مدى نزاهتها فقد أخذوا يبحثون عن تفسير وتبرير لهذه النتيجة، وشرعوا في ترتيب صفوفهم بدرجة تزيل شبح الخسارة المتوقعة في الانتخابات القادمة. فاستعانوا بالمحكمة لتبرير قانونية دمج قائمتين انتخابيتين لهم في واحدة، وأتساءل إن ساهم هذا حقا في درء خطر كبير على الحركة أم كان أحد أسباب التراجع المتزايد. أحد المتغيرات التي قد تبدو طريفة وظهرت عقب الانتخابات البلدية - وشهدتها في مدينة البيرة خاصة - إطلاق الشائعات أو ما يأخذ شكل "النكات" التي تتناول طريقة الإدارة البلدية المتوقعة للأعضاء الفائزين من حماس، والذين حصلوا على رئاسة البلدية ومقاعد عديدة. على سبيل المثال: قيل "حماس ستمنع فتح المحال التجارية يوم الجمعة نهائيا وطوال اليوم؛ وحماس ستفرض صيام الخميس والاثنين". وأعضاء حماس لن يستطيعوا إدارة البلدية في المرحلة الصعبة القادمة وغيره. وبغض النظر عن النتيجة التي قصد "مبدعو" هذه "النكات" الوصول إليها فقد كانت بداية ظهور موجة من النكات خلال مرحلة الدعاية الانتخابية للمجلس التشريعي ومن ثم وبشكل أوسع بعد نتيجة الانتخابات "المذهلة". غير أنها نكات وإشاعات مست العديد من الفصائل لاحقا وإن تركزت بمعظمها على حماس.

وبدأت الدعاية الانتخابية لمرشحي المجلس التشريعي بالظهور. ألوان بنفسجية وحمراء لقوائم أرادت أصوات الجميع رغم مظهرها وجوهرها الخاص بأقلية من "المرفهين" و"الزهقانيين". كان أجمل تصميم لدعاية انتخابية من حيث المظهر "حركة فتح". كانت زهرة عباد الشمس الصفراء التي أريد لها أن تظهر الحركة مشرقة كالشمس وبريئة كالأطفال الذين أبرزوا في اللوحات وعبر تصميمات "الكمبيوتر" مرتدين أطواق زهر النجاة الأصفر. كان اللون الأصفر طاغيا على عروق "العباد" الخضراء، وليت الفنان "المصمم" أبرز قسما أكبر من الساق الأخضر "للعباد" لتكون الصورة أجمل و"أشمل". بالنسبة لي كانت زهرة عباد الشمس ساحرة المظهر. دعاية حماس الانتخابية تأخرت - لئلا ظهر لي - عن البروز في رام الله والبيرة، وفي مخيمنا خاصة، بالمقارنة مع القوة التي بدأت بها دعاية الآخرين. كنت أظنه زهدا غير أنها ما لبثت بالظهور يوما بعد يوم خضراء هادئة، في النهاية لم تكن بسيطة لكنها لم تبد لي أكثر من الدعاية التي قام بها مرشح واحد من الأغنياء والممولين. أما المرشحين المستقلين فكانوا من الكثرة بحيث ضاق الناس بذلك ولأن فيهم من كانوا لا يحملون درجات علمية محترمة أو ماضي بمستوى المسؤولية المنتظرة من عضو مجلس تشريعي فقد شاعت التعليقات الساخرة من مثل: "انتخابات مسخرة"، "اللي بينزل بيقل قيمة حالو" "نازل الواحد مع ولاد"، "قال



الشباب بدهم المرة الجاي كلهم يرشحوا حالهم دفعة وحدة وقال البنات اللي بدهن ينتخبين". وبالرغم من وجود مرشحين يحظون بالاحترام إلا أن خلفية المرشح "لناخب ظهر تأثيرها لاحقاً. فهناك من له خلفية يسارية يخفيها ويرضي الجمهور غير اليساري بالنزول المستقل. وهناك الفتاوي الذي يدغدغ مشاعر الناس بنبذ الفساد متهما نفسه سابقاً أو زملائه بالفساد دون أن يدري ومبررا ساحته "حالياً". وحدهم مرشحون حماس متماسكون ومنضبطين في حركتهم. وظهر مدى انسجامهم وتناغمهم. بعض الناس توقعوا ترشح أعضاء في حماس من نوعية أقوى من بعض المرشحين الظاهرين في الدعاية، وما لبث الناس أن تداولوا فكرة أن حماس لا تلعب بكل أوراقها مرة واحدة وأن الانسجام في الحركة وكفاءة المرشحين كافية لأداء يرضي الناخبين في هذه المرحلة. من "الموضة" في النقاشات "الفضائية" و"العضلاتية" طرح قضية المرأة وحقوقها كعقبة يضعها المنافسون أمام الحركات الإسلامية؛ وبعيدا عن تجارب الآخرين يمكنني كامرأة لاجئة عايشة ألوان فلسطينية عدة الإشادة بنجاح حركة حماس الواضح في التعامل مع هذا التحدي ألا وهو قضية المرأة. في الانتخابات الجامعية والبلدية كانت المرأة عنصراً قوياً وملفتاً للنظر في العمل لصالح حماس. الأمر هنا يتعلق بفتيات ونساء على قدر عال بل ومتفوق في المجال العلمي والمهني والاجتماعي. أي أن حماس تملك كما ونوعاً متفوقاً من النساء في قاعدة أنصارها، الأمر الذي لعب دوراً هاماً وفاعلاً في الدعاية للحملة الانتخابية "الحماسية" التشريعية. وتجد امرأة نشطة متطوعة للدعاية لحماس مجندة صغارها أيضاً بالرغم من أن زوجها مسؤول كبير في حزب آخر، بل إن زوجات وأمهات وبنات وأخوات العديد من اليساريين لئن من مؤيدات حركة حماس. إضافة إلى أن زوجات وأخوات وأمهات ضحايا الاحتلال والفساد وخاصة من أودوا بسبب تأييدهم لحماس قد تحولن بكل قوتهن لحث الناس لاختيار "المقاومة" وإن كن من قبل غير آبهات بالسياسة. ومن النكات التي قيل أن شباب من فتح أطلقوها فترة الدعاية الانتخابية على الشابات الجميلات المحجبات اللواتي كن يظن البيوت لتفقيه السطاء حول الانتخابات وإجراءاتها، أنهن كن يقلن لكبار السن: "إذا بدكم حماس بس حطوا في المربع إشارة صح، وإذا ما بدكم إياها حطوا إشارة خطأ" وطبعاً يضحك "الشبيبة" لأن الورقة ستكون صحيحة لصالح حماس سواء كان في المربع علامة "صح" أو "خطأ".

كانت الملاحظة الطاغية التي اشترك فيها الناس في فترة الدعاية الانتخابية هي استنكار تبذير الملايين على الدعاية الانتخابية، وتجد الشخص يحدث صاحبه كلما مروا في الشوارع الغارقة بأقمشة وأوراق ولوحات الدعاية: "مش حرام كل هالملايين تروح ع



الأرض، مش بقولوا الخزنة مفلسة ونشدد من اللي بيسوى واللي ما بيسوى، مش لو عملوا مشروع فيهن لهالشباب كان حطناهم ع راسنا".

بالدرجة الثانية كانت ملاحظة أيضا تستنكر ما كتب من شعارات خاصة شعارات المرشحين ممن كانوا أعضاء سابقين في المجلس التشريعي. ويرى أغلبية من تحدثت معهم أن "السابقين" أعطوا فرصة طويلة جدا ولم ينجحوا فلا يفيد تكرار تجربتهم. إضافة إلى ملاحظة على برنامج المرشحين الذي غلب عليه محاربة الفساد، وكما قال أحد العامة ببساطة: "بيحكوا عن الفساد وهم الفساد، يا ستي الورق اللي كاتبين عليه هو بذاتا فساد". وعلى البرنامج الانتخابي حيث رأى البعض أنه عكس ما حدث بالماضي أو ما يُتوقع من بعض المرشحين و"أقرأ أقرأ أكلو كذب".

وكالعادة يرى كثيرون أنه حتى الجيودن من المرشحين عندما يصلون إلى السلطة يفسدون، ولا داعي للأمل بأي منهم. فظننت وقتها أن نسبة المنتخبين ستقل كثيرا بسبب هذا الإحباط. ومع ذلك فإن مشاركة غير مسبوقه عالية شهدها يوم الانتخاب. كان يوم الانتخاب يوما مذهلا، أعداد هائلة اصطفت في طوابير للانتخاب، أجواء مشحونة، السيارات تحمل شعارات لأنصار هذه الجهة أو تلك، الشوارع والجدران ما تزال تعج باللافتات والصور الدعائية، ولأول مرة غطيت صور الشهداء دون أن يعترض أحد، الكل كان منشغلاً بالصور الجديدة، الكل يبحث عن مساحة له، والكل يطمع بالمساحة الأكبر، حتى على حساب صور الشهداء. الفريقان الأقوى نشاطا كانا "فتح وحماس" ولكني لم أتوقع أن يبتلع هذان "التياران" معظم الكعكة. كنت أتوقع فوز بعض المستقلين ونسبة -أكبر مما نتج لاحقا- "للمنفوخين". صوت غالبة من قابلتهم لأكثر من جهة، الورقة الانتخابية كانت تعج بالأسماء فتشتت أصوات كثيرين لكن القاسم المشترك الأكبر فاز؛ "حماس"! فعندما تسأل المقربين منك يخبروك باختيارهم يساريين وحماس أو فتح وحماس أو مستقلين وحماس.. وبذلك يمكن القول أن اختيار حماس دخل معظم البيوت الفلسطينية سواء بصوت واحد أو بكل الأصوات حتى مناطق مسيحية فوز في صناديقهم أصوات لصالح حماس.



الخوف من حدوث فتنة بين الأخوة كان يقلق الجميع وانتظار ساعة إغلاق الصناديق وفرزها كان هم مشترك وكنا نتوق لانتهائه دون مشاكل. وبالفعل لم يحدث أي مشكلة حقيقية باستثناء استمرار كل طرف بالدعاية لمرشحه وبيع الفهولة كإرسال صغار وشبان يحملون ورق دعاية أو المناداة في الهواء كأن الشاب لا يقصد عمل دعاية أو بتشغيل تسجيلات وأغاني دعائية وهكذا..

عندما أعلن عن إغلاق صناديق الاقتراع لم أتمالك نفسي من الفرح بدأت أفقر وبصوت عالٍ وفرح أقول: "الشعب الفلسطيني بطل بطل لم يحدث أي مشكلة والحمد لله!". أمي ردتني بتلقائيتها وبصوتها المرتفع: "على شو أبطال يختي!!؟ على شو!!؟ شو حررتوا فلسطين!! ع بعض انتصرتوا هذا اللي فالحين في". حاولت أقناعها بما أشعر، لم تأبه بذلك. أمي لاجئة من قرية دمرت وهجر أهلها بقسوة بالغة عام 48، ولا شيء عندها له قيمة إن لم يكن عودة تلك الأرض. وهي لم تشارك في الانتخابات لأننا الأخوة لسنا مؤيدين لجهة واحدة وكنا سنختلف فيمن سيحظى باصطحاب "أما الأمية"، وهي لا تشاركنا هذا الخلاف لان لها رأي آخر وكثيرا ما يُعجز "الأميون" الآخرين بصفاء فكرهم وعبقريتهم الفطرية.

لا شك أن أصعب مرحلة هي عملية الفرز، يحتاج القائمون على عملية الفرز في غرفتهم المغلقة إلى أعصاب قوية تتحمل النتيجة سيما أنه يجري في وضع متوتر كما في هذا الموقف الفلسطيني الخاص. "حماس رقم واحد أو تكاد"، نتيجة مذهلة!. "فازت فتح" كلمات لم تتناقلها الفضائيات المتسعة فقط ولكن حتى شبان حماس أشاعوها أحيانا خوفا من ردة الفعل عند الآخرين وكيتصل الصناديق بأمان. غادروا أماكن الفرز والتزم الأغلبية الصمت في البيوت وكثير من احتفالات الفائزين تأجلت بعض الوقت منعا لصدمة المفلةجأة وتوكن الآخرون يحتفلون. استطلاعات الرأي كانت غير دقيقة؛ بعض من سألتهم أخبروني أنهم لم يعطوا موظفي الاستطلاع كل الحقيقة. لكن الناس كانت تعرف تماما من انتخبت. وقف "رسميون" لوقت حيارى ماذا يفعلون بالصناديق وقد عرفوا النتيجة "فقال بعضهم لبعض يتلاومون": "أخرجوا وأعلنوا الخبر رسميا، الناس تعرف من انتخبت". كانت النسبة أعلى من أي قدرة على التعديل. وكانت الحقيقة معروفة ثانية بثانية لأن المراقبين والممثلين عن المرشحين يحملون أجهزة نقالة وتم إيصال الرقم وتفاصيل العملية كلها أول بأول لخارج مراكز الاقتراع وكانت النسبة عرفت قبل أن يخرج الموظفون من غرف الفرز. وانتشر الخبر... "الزحف الأخضر"... "تسونامي"... موجة ضخمة من اللقاءات الفضائية تصول وتجول هنا وهناك تنتشر، تحلل، أو تتسلى بالحدث. وعلى أرض الحدث كانت موجة "تسونامية" من "النكات" تصاعدت أكثر من أي فترة سبقت تصاحب مخاوف أو توقعات أو فرح البعض. وهي موجة حملت أيضا إشاعات وتمريبات مغرضة قصد البعض نشرها في هذه الأجواء المتوترة.



وكما في إشاعات ونكات ما بعد انتخابات البلدية؛ تركز الجديد منها على إدارة حماس للسلطة ولون شعارها الأخضر وعلى القوانين الإسلامية. من أمثلة ذلك: "يقولون بدهم يلبسوا الشرطة دشاديش ويحطولهم خنجر ع الخصر، النسوان بدهم يلبسوهن جلابيب، ممنوع المرة تسوق سيارة، اللي بيقطع والإشارة حمرة 80 جلدة، بدهم الحلاقين يسكروا محلاتهم، بدهم يهدوا.. بدهم يسكروا.. بدهم يغيروا... بدهم يخالفوا السواق اللي مش متوضي، بدهم يدفعوا المسيحية الجزية، بدهم يقيموا الحد ع اللي عندو سطايت، بدهم يجلدوا اللي بيسمع نانسي عجرم ثلاثين وللي بيسمع هيفا وهبي خمسين. بدهم يمنعوا معجون الاسنان ويفرضوا السواك، بدهم يكتفوا الميت بأخضر...." و"قال سحبوا السيارات من وزرا فتح وصر فولهم جمال وسحبوا البلفونات وصر فولهم حمام زاجل ولما انجلطوا بتوع فتح منعهم هنية من السفر للخارج والعلاج فقط بالقران". "قال فتح عملت عملية استشهادية الزهار استتكر"، "واحد يهودي زحلق في الحمام قام الزهار اتبنى العملية قال شو قال البليط حماسوي"، "واللي صار من تدبير اسرائيل وأمريكا قال سوو في حماس زي الولد المشاغب بيحطو الاستاذ عريف الصف عشان يتربى"....

ومع ان "النكت" ان صح تسمية بعضها بذلك اختصت بحماس لكنها أيضا طالت الجميع ومنها: "واحد بيهني جهاوي على المقعدين يقولوا: مبروك يا عم صالكم كرسيين! يقولوا الثاني: على شو يابا هذول طلحن كراسي بلاستيك"، "قال الفتحاوية عاملين عرس جماعي الليلة في المخيم لأنهم طلقوا نسوانهم قال طلحن حماسوايات"، "الشب الفتحاوي لازم يحفظ أقلو جزء عم قبل ما يقرب يخطب بنت حماسوية"، "شب ملتحي فقير من شباب حماس عايش ع البركة مر عنو واحد من بتوع السلطة بسيارة شبح، طبل الحمساوي ع شباك السيارة وقال للفتحاوي بمنافس كبيرة: بالله دير بالك عليها بدي أستلمها منك الشهر اللي جاي جديدة زي ما استلمتها". "قال الفتحاوية بدهم يغتالوا أبو مازن قال ليش قال منتخب حماس"، "قال واحد يقول للثاني: ليش بدك تنتخب فتح؟ اللهو يقول: فتح أحسن، قلبها قوي بتبيع وبيهمهاش"، "قال كل ما حماس بتفوز بمقعدين بتوخذ فتحاوي هدية". "ع التلفزيون ظلوا يقولوا سنة 2006 مش منيحة مش منيحة؛ قال طلغوا هذول لمنجمين فتحاوية"...

ربما تكون هذه النكات والإشاعات - وهناك المزي منها وبعضها لا أخلاقية فلم آت على ذكرها- قد بدأت مغرضة لاثارة المخاوف من فوز حماس عقب الانتخابات البلدية ولكنها سرعان ما اختلطت بالنكات العفوية البريئة التي تحمل تفرغ لمخاوف البعض وبنفس الوقت نقد أو محاولة تصوير ما حدث أو ما هو آت أو للدعابة. ولكن الإشاعات والإشارات باللمز والتعريض بالآخر



لاثارة الفتنة والغضب موجودة وهناك احتمال أن يزداد حقن الشارع الفلسطيني بها في الأيام القادمة. إلا أن نجاح الشعب في اجتياز مراحل صعبة سابقا وما يملك من أسر متنوعة في لونها السياسي هو صمام الأمان والأمل في غد يكمل فيه الشعب نجاحه. ومن الهام أن يتعلم جميع الأطراف أن الرابح الأول والأكبر هو الشعب الذي استطاع أن يعاقب ويكافئ ويعطي الفرصة ويحتمل الصعاب. وأن الشعب هو الرهان الأول، وأن من خسر ومن نجح بحاجة إلى اقتناع الشعب به في المرحلة القادمة. لأن من أنجب كل هؤلاء الشهداء والأبطال على مدى قرون ومن استحق شرف جوار القدس وسكن أرض الرباط غير عاجز عن أن ينجب القيادة تلو القيادة التي تعيد حقه في القدس والعودة والسيادة الكاملة، وأن من انتخبوا لم يكونوا غوغاء أو همج أو عاطفيين بل إن أغلب من انتخب أو امتنع عن الانتخاب أقدم على ذلك بعد تفكير وتمحيص لأن حياة الفلسطينيين أصبحت في درجة من السوء ومستقبلهم في درجة من الخطر بحيث لم يعد الأمر يحتمل مزيداً من الصمت والسير "الحيط الحيط"؛ فالحائط فاغرٌ فمه يكاد يبتلعهم.